

قضية ضد الشيطان

info@darak-egy.com



02 24832669-010 27251915



51 ب شارع النهضة – من امتداد رمسيس – القاهرة.



جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

قضية ضد الشيطان

اسم النص الأصلي: A CASE AGAINST SATAN

اسم المؤلف: راي راسل

ترجمة: شيرين هنائي

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 20121/13113

الترقيم الدولي: 978-977-6634-59-6

الطبعة الأولى: 2021

راي راسل

قضية ضد الشيطان

رواية

ترجمة

شيرين هنائي



شكر خاص من المترجمة لدكتور «ماريّا ألفي»
لمراجعتها النصوص المسيحية المذكورة في الرواية.

جزيلُ الشكر والمحبة.

وجهي منتصف الليل

رہما لأن الله قد صار في مُخيلتنا كـ «سانتا كلوز»، ملتجيا، بشوشًا، تلمع عيناه ببسمةٍ بريئةٍ من خلف نظّارته الطيبة. أو رہما لأنهم يحثوننا بعضا راعٍ كالنجاج عبر إعلانات التلفاز، كي نرعى جميعًا في حظيرة العبادة. أو رہما لأن اللوحات الدينية الدعائية المكتوبة بعبارات جزلة تؤكد لنا أن العائلة التي تعبد الله سويًا لا تفترق. أو رہما أن الدين قد صار كيانًا غير مُقنعٍ من نورٍ بلا ظلمات، حلوى تقيّةٍ شهيةٍ مُخدّرة، حتى إن كارل ماركس نعته بـ (أفيون الشعوب). أو رہما لأنهم أقتنعوا أنه بدون الحروب والقتل والمجاعات والفرع، لن يكون هناك حُبٌّ أو فنٌّ أو إيمانٌ خالصٌ.

رہما لكل تلك الأسباب أو بعضها، ورہما لأسبابٍ أخرى لم نُخلَق لنفهمها، مَثَل كاهن من الرومان الكاثوليك أمام المُساءلة، في نهاية أسبوعٍ مروعٍ من النصف الثاني من القرن العشرين.

بدأت مُحاکمته بسردٍ عددٍ من الوقائع البسيطة التي تستحق التوقف عندها. منها مثلاً: أن أنوار الردهة في مسكن القساوسة بكنيسة «الملاك ميخائيل» كانت مُتقددة على أعلى شدةٍ تيارٍ ممكنٍ عند منتصف ليلةٍ نهاية الأسبوعِ إيّاها. وكان الموقف غريبًا كون ساكني المنزل من

الكهنة يستيقظون مبكرًا ويهجعون إلى مضاجعهم مبكرًا، فما سبب سطوع الأضواء ليلتها؟

من الملاحظ كذلك، أن ثمة شخصين كانا يذرعان الممر أمام المنزل جيئةً وذهابًا، وكأنهما ينتظران شخصًا أو حدثًا على وشك الوقوع. أحد الشخصين كان خمسينيًا، ضخم الجسد، أما الآخر فكانت مُراهقةً جميلةً، تعقص شعرها على هيئة ذيل حصان.

حين فُتِحَ بابُ المنزل أخيرًا، تخفَّى الشخصان وسط الظلال، بينما خرج كاهنٌ، عابرًا الضوء الأصفر المُنسكب من فرجة الباب، ماشيًا نحو سيارة من طراز بويك، واقفة على مَبعدة، ثم ركبها وابتعد. وبمجرد ابتعاد الكاهن، سار الشخصان نحو باب المنزل. تراجعت الفتاة للحظة، فأمسك الرجل بذراعها وصاح بضع كلمات غاضبة، لكن الفتاة فرّت من قبضته وعَدّت نحو باب المسكن. فكَرَّ الرجل أن يناديها، لكنه تراجع كي لا يعلو صوته في ليلة هادئة كتلك، وبدلًا عن ذلك، سار خلفها بهدوء.

كانت ليلة جمعة من أواخر شهر سبتمبر، وكانت ليلة دافئة بلا سبب. البعض كان يقول أن اليوم كان صبيحة السبت، كون الوقت قد جاوز منتصف الليل، لكن الأب جريجوري سارجنت كان له رأيٌ آخر. فقد عاد هو وسَلَفُه الأب جيمس هالوران إلى المنزل قبل وقتٍ قصيرٍ، حيث رفع الأب سارجنت قنينة خمرٍ وسأل رفيقه:

- أتريد بعض البراندي أيها الأب هالوران؟ لقد كان يومًا طويلًا.

- كلا، أشكرك.

- هل تمانع لو شربْتُ أنا؟

- كلا.. بالطبع كما تشاء.

صَبَّ الأب سارِجَتِ لنفسه مقدارًا قليلًا وأضاف مبتسمًا:

- أستشعر رِفْصًا في صوتك أيها الأب.

- آسَفٌ لذلك.

- أعرف سِرَّ رِفْصِكَ، كوني أكسر القواعد. لكن دعني أشرح لك.. أعرف أننا ممنوعون من الاقتراب من تلك المشروبات حتى الوقت الذي يلي قداس الصباح على الأقل. وكوننا جاوزنا منتصف الليل، فهذا يعني أننا عمليًا في الصباح، أليس هذا هو سبب رِفْصِكَ للشرب؟

- حسنًا...

صاح الأب سارِجَتِ في انتصار:

- أها! هذا هو سِرُّ رِفْصِكَ! أنت دقيق في حسابات الزمن، وحادٌ

كذلك.

- وأنت؟

كان من شيم الأب سارِجَتِ أن يصمت قليلًا قبل أن يلقي بخلاصة أفكاره؛ لذا قال سارِجَتِ بعد هنيهة:

- الوقت كله لله بالطبع، لكن وفقًا لتوقيتات الرب وصلواته، فلن

يأتي الغد قبل...

ونظر إلى ساعته مردفًا:

- قبل سبع وخمسين دقيقة!

ثم رفع كأسه إلى شفثيه وجرع البراندي. حاول الأب هالوران أن

يندمج في أجواء مزحة رفيقه فقال:

- أنت بارع حقاً في فنون الإقناع!

كان جريجوري سارجنت يعلم أن البهجة لم تجد في نفس رفيقه مُتسَعِّاً، فقد كان الأب هالوران يفتقر إلى روح الدعابة، بالإضافة إلى ووجه حقة الستينيات من العمر، حيث كان يكبرُ جريجوري بخمسة عشر عاماً. كذلك، فالأب هالوران متعباً، مثله كمثل جريجوري. فقد كانا عائدين للتو من سلسلة زيارات لرعايا الكنيسة، تهدف لتقديم الأب جريجوري سارجنت إلى أبناء إبرشيته.

قال جريجوري:

- من المؤسف كونك مضطراً للرحيل قبل يوم عيد الإبرشية.

- أجل.. فلطالما استمتعت بعيد الملاك ميخائيل؛ بقَدَّاسه الخاص، والموسيقى المميزة. لكن ملجأ اليتامى يحتاج إلى من يتولاه في أسرع وقت.

- أوأثق من أنك لا تريد تمضية الليلة هنا؟ الوقت متأخرٌ للغاية.

- لو بدأت في القيادة الآن، فسأصل إلى الملجأ قبيل الفجر في وقتٍ مناسبٍ لبدء عملي. هم يتوقعون مجيئي صباحاً ولا أريد أن يخيب أملهم في أول يومٍ. لقد أضعت وقتاً طويلاً في ترتيبات مغادرة المكان هنا.

- لكن متى ستنام؟

- أنا لا أنام كثيراً هذه الأيام.

كاد جريجوري أن يصرح بأنه هو الآخر لا ينام، لكن ماذا يُثقل كاهلي هالوران؟ سأل جريجوري:

- هل تظن أن الملجأ سيروق لك؟

- أعتقد أنني سأكون مفيداً هناك. هذا هو كل ما يُهمني.

- أتفهمّ رغبة المرء في الفرار من هنا بأي طريقة!

قال الأب هالوران بسرعة:

- أبداً. الناس هنا طيبون إجمالاً، فيما عدا بعض المضايقات بالطبع.

على سبيل المثال، كاتب المنشورات هذا، الرجل المدعو تالبوت؟

- الإبرشية لا تكتمل إلا بوجود هؤلاء.

- لديك حق. لقد كوّنت صداقاتٍ هنا، وكنْتُ سعيداً. بعض

المضايقات الصغيرة لا تهمني.

قال جريجوري:

- ربما تهتمك بعض المضايقات غير العادية؟

نظر الأب هالوران إليه بغتة وتساءل:

- ماذا تعني؟

ابتسم جريجوري وقال:

- أعني مدير الأعمال الذي التقينا به اليوم على سبيل المثال. ماذا

كان اسمه؟ جلينكانون؟

- أجل.

- أستطيع أن أرى أن لديه مشكلة فريدة. هل سبق له أن تقدّم لك

بفكرة إرسال اعترافه مُسجلاً بالبريد أو عبر الديكتافون، وتلقّي الغفران

الذي ستمنحه إياه عبر الهاتف؟

أوماً الأب هالوران برأسه وقال:

- مرة أو مرتين. هو رجل ذو عزمٍ من الصعب تثبيطه.

- والصيدلي؟ هل يتوقع منك تقديم خدمات مماثلة له، أو توصيل العلاج بدلاً منه؟

- لا تنسُ عليهم. هو فقط قد علم أنني سأزور واحدًا من أبناء الإبراشية المرضى، وهو زبون لدى الصيدلي. لا أمانع في توصيل الأدوية. تلك الإبراشية تشبه مدينة صغيرة. أنت تعرف هذه الأمور..
- أجل، أعرف.

- وهذا هو ما يجعلها إبرشية ذات طابع خاص.
أكمل جريجوري حديثه وقال:

- وهذا السيد المُسن، السيد سويري.. أنا ممتن كونك مهَّدت لي الطريق لمعرفته. يبدو أن أمر إقامة ثلاثة مراسم زفاف له في أماكن وأزمة متفرقة كان ثقيلاً عليك. أكان يجب أن يكلفك كل تلك المشقة كي يحيا في تباتٍ ونباتٍ ثلاث مرات؟!
- أعترف أن هذا كان غريبًا فعلاً.

- وماذا عن عائلة بارلو؟ يبدو أن الزوج لطيف المعشر وهادئ، أما زوجته فقط أذهلتني، أهي مستبدة هكذا دومًا؟

- السيدة بارلو سيدة محترمة، وذات شخصية قيادية وسط سيدات الإبراشية. كذلك تهتم بالنشاطات الاجتماعية. شخصية جذابة.
بعد هنيهة صمتٍ قال الأب هالوران:

- لستُ قلقًا على عائلة بارلو، بل كل ما يقلقني هو عائلة جارث.
- أليست هي تلك لعائلة التي زُرناها في نهاية اليوم؟ الرجل وابنته؟
- أجل. المشكلة صعبة ومعقدة. الفتاة في السادسة عشر، وأمها

متوفاة. شخصية مضطربة عقلياً وتنتابها نوبات تبدو كصرع. لطالما نصحت أباهما أن يعرضها على اختصاصي نفسي و..

ابتسم الأب جريجوري وهو يستعيد التفاصيل: مراهقة في السادسة عشر تنتابها نوبات صرع. في سن صغير كهذا، تُعزى تلك النوبات إلى أسباب هysterية جنسية. الجنس.. هذه الرغبة القوية البكر التي تجاهد للتححرر قد تتخذ أشكالاً عدة للتعبير عن سَطوتِها.

لطالما كان جريجوري يعتقد أن أي نهرٍ متدفق ينتهي إلى شلال هادر.

قد يقف شخصان أمام هذا النهر القوي، وينتاب كلا منهما شعور مخالف عن الآخر. فمهما من يُذعر من تدفق النهر ويرغب في إيقافه رغم عنفوانه، وحين يفشل في ذلك، فإنه يشيح بنظره عنه كي لا يضطر للنظر إليه والاعتراف بوجوده. ومهما من يقول في نفسه: يا لها من قوة مذهلة، برية، جامحة. يمكنني استغلال تلك القوة فيما هو صالح. يمكنني توليد الكهرباء وري الأراضي.

ردّ الفعل الأخير تجاه النهر، هو ما يتبناه الفكر الكاثوليكي تجاه الجنس، أما الرأي الأول فهو ما يعتنقه البروتستانت. لكن جريجوري كان يعتبر وجهة نظره مُتحملةً على الطرفين، فالتقسيم الفكري ليس بهذه الحدة.

نظر الأب هالوران إلى ساعته وقال:

- أعتقد أن عليّ الرحيل، الوقت قد تأخر ولدي مسافة طويلة لأقطعها.

- هل أعددت حقائبك؟

- حقائبي مُعدّة وتنتظرنني في السيارة. أراك على خير أيها الأب سارجنت.

- أوأثقُّ أنك لا تريد المكوث هنا حتى الصباح؟

- لا أستطيع فعلاً.

صاحب جريجوري رفيقه حتى الباب وهتف:

- إلى اللقاء أيها الأب هالوران، وأشكرك مجدداً كونك سهّلت عليّ

تولي المنصب من بعدك. أنا ممتنٌ للغاية.

عند الباب، التفت الأب هالوران وأضاف فجأة:

- اسمها سوزان.

- عمن تتحدث؟

- ابنة جارث، التي تنتابها النوبات.

- آه.. أجل، سوزان. سأذكر اسمها.

- كنت أتمنى لو أن لدي متسعاً من الوقت كي أعرض عليك مشكلتها

بتفاصيل أكثر، وأخشى أنني لم أستطع أن أقدم لها العون الكافي. أنت

رجل ذكي، متبحرٌ في علوم النفس. لقد قرأت بعضاً من مقالاتك المنشورة

وأرى أنك مؤهّلٌ تماماً لمساعدة الفتاة. ارفق بها.. رجاءً.

- سأفعل.

صافح الأب هالوران جريجوري للمرة الأخيرة، واسترجع جريجوري

أبناء الرعية غريبسي الأطوار الذين قابلوهم اليوم، وتبادلا ابتسامتين

باردتين.

بمجرد أن انغلق الباب خلف الأب هالوران، اعتل مزاج جريجوري،

فقذف بأخر قطرات كأس البراندي في حلقه، وتهاوى على كرسي، دافئاً

وجهه بين كفيه لدقائق.

ثم رفع وجهه ونظر إلى صالمة مقره الجديد. تتناثر في أرجاء الحجرة المزهريات، ويكسو الحوائط ورق الحائط المنتشر في كل بيوت الطبقة المتوسطة، تُزيّنه لوحاتٌ لمواضيع دينية. قام من كُرسيه وتناول كتاب الأدعية من فوق الطاولة جواره، ثم جلس إلى مكتبه وخلع معطفه حين شعر بدفء الجو.

شعر بصعوبة في التركيز، فكان عقله ينجرّف بسهولة وسط تداعي الأفكار وصفحات الكتاب، ولم يستطع سوى المقارنة بين هذا المنزل وبين مسكنُ القساوسة الخاص بكنيسة القديس فرانسيس، بحجراته الواسعة الفاخرة الزاهية، وديكوراته التي توازن بين الكلاسيكية والمعاصرة. تذكّر كذلك رفاق إبرشيتته ورعاياها؛ رجال ونساء مثقفين، كُتّاب، مخرجي مسرح، موسيقيين، معلّمين. تذكّر تجمّعات العشاء الراقية بعد العروض المسرحية، الأطعمة الفاخرة، الخمور المُعتقّة، ساعات النقاش المُثمر الهادئ، خطط التعاون مع أصدقاء من المُحلّلين النفسيين لإصدار كتابٍ مشتركٍ. كل هذا قد ذهب وتناثر مع الريح.

كان عليه أن يبدأ من الصفر، في إبرشية صغيرة، وسط أناسٍ بسطاء لا يُقارنون بمن كان يعرفهم. كان عليه أن يبدأ من الصفر في سن الخامسة والأربعين.

فكّر جريجوري أن الموسيقى ربما تساعد، فقام وضغطَ زرَّ جهاز تشغيل الموسيقى، وظلَّ يبحث في مجموعة المقطوعات المتوافرة. كان يحب الأغاني الإيطالية القديمة، لكنها لم تكن من ضمن المتاح، فانتقى مقطوعة «نوافذ الكنيسة» للموسيقار راسبيجي، ووضعها في جهاز التشغيل.

جلس وفتح الكتاب ثانيةً، حين هدهدته أولى مقاطع الموسيقى

والمسماة «رحلة إلى مصر» بأنغامها الرقيقة الليلة، التي وجد فيها جريجوري سلامًا خاصًا.

«رحلة إلى مصر».. هودج يسير في الصحراء تحت سماء مُرصعة بالنجوم..

أغلق عينيه وترك الدفة للموسيقى تذهب عنه توتره وتُخلي عقله المُنهك حتى انتهى المقطع الأول. أفاق من استرخائه مع بداية المقطع الثاني والمُسَمَّى «رئيس الملائكة ميخائيل»، وقد هزه عنفوان الموسيقى المفاجئ الذي يمثّل معركة الملاك ميخائيل وجنوده ضد التنين وأعوانه لطرده من السماوات، حيث لم يعد لهم مكان.

لم يعد لهم مكان في السماوات..

دمعت عيناه والموسيقى العُلوية تلف جريجوري وتسحقه كغضبٍ إلهي. همس:

- يا إلهي..

وصلت الموسيقى ذورتها، وفعلت به أفاعيلها حتى غاب عن دنياه وسط أمواجهها ولم يسمع صوت جرس الباب.